الاعتراضُ بعْدَ الحضِّ

أ. يوسف مروان البوّاب(*)

الملخَّص:

تعالج هذه النكتة اللغوية نمطاً تركيبيًّا فريداً ورد فيه اعتراضان (ظرفيٌّ، فشَرطيٌّ) بعد «لولا» التي تفيد الحضَّ. ويبدو أنَّ هذين الاعتراضين لم يجتمعا بعد «لولا» إلا في القرآن الكريم؛ إذ أظهر التتبعُ في (المدونة اللغوية للمكتبة الشاملة)(١) انفراد نماذج الحض الأخرى التي وقع فيها الاعتراض بين أداة الحض والفعل - بأحد ذينك الاعتراضين.

وثمة تطوُّرٌ تاريخيٌّ ظهر في استعمال الاعتراض بعد الحضِّ حين استُبدلت بـ «لولا» الأداة: «هلّا»، أو غُلِّبتْ عليها، واقتصر الاعتراض في تلك النماذج على الظَّرف أو على الشَّرط.

البحث:

الاعتراض أسلوب شائع في العربية؛ إذ يقع في أنماط تركيبية متنوعة. ومن المواضع النادرة التي استعمل فيها أنه ورد بعد الرأس الوظيفي «لولا» المفيد للحضّ؛ ففي قوله تعالى في سورة الواقعة [٨٣-٨٧]: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ

(*) ماجستير في اللغة العربية وآدابها.

(١) تضمنت هذه المدونة مئات الكتب في اللغة والأدب والسيرة والتاريخ وعلوم الشريعة ونحوها، وروعي في اختيار هذه الكتب اختلاف عصور تأليفها.

﴿ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، جاء اعتراضان بعد «لولا»؛ إذ التقدير: «فهلّا ترجعون الروح إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين»[٢]، ففُصِلتْ لولا عن فعلها «ترجعونها» بتركيبين: الأول ظرفيّ «إذا بلغت الحلقوم»، والآخر شرطيّ «إن كنتم غير مدينين».

وقد نصَّ ابن هشام على أن «لولا» الثانية الواردة قبل الشرط ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ تكرارٌ للأولى[٣]، وعلى هذا تكون «ترجعونها» جواباً لـ «لولا» الأولى، ويكون ذلك التكرارُ بمنزلة تذكير بـ «لولا» الأولى التي بعُدت المسافة بينها وبين فعلها. ويمكن أن يقال عندئذ: إن وجود «لولا» الثانية لا يؤثر في النمط التركيبي؛ لأنها توكيدٌ لفظي، و«التوكيد غير خاضع للعوامل، فلا محل له من الإعراب»[٤].

والأصل في «لولا» أن تفيد معنى الشرط حين تدخل على الأسماء، أما «إذا كانت مع الأفعال فهي بمعنى (هلّا)، لومٌ على ما مضى، وتحضيض لما يأتي»[٥]، فالنمط الوارد في الآية الكريمة إذن يوجب أن تكون «لولا» على معنى التحضيض.

غير أن مجيء الاعتراض على هذا النحو بعد «لولا» لم يرد إلا في الأنموذج القرآني[٦]، فقد أظهر تتبعُ هذا النمط التركيبي في (المدونة

(٢) ابن هشام، جمال الدين عبد الله بن يوسف الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ٢٧٣.
(٣) المرجع السابق، ٢٧٣.
(٤) بيطار، عاصم، النحو والصرف، ٢٨٣.
(٥) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، ٥/ ٢٩٨.
(٦) وردت «لولا» التي تفيد الحض في مواضع أخرى من القرآن الكريم، لكن الاعتراض بعدها كان بالظرف وحده، ومن ذلك: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ [الأنعام: ٤٣]، =

للمكتبة الشاملة) ورود الأداة «هلّا» لا «لولا»، كما أظهر أيضاً أنَّ الاعتراض الذي يأتي بعد الحض يقتصر على أحد النوعين: الظرف أو الشرط. وبهذا يكون النمط التركيبي (الحض – الاعتراض) في معظم استعمالاته يقوم على أمرين؛ أولهما: غلبة استعمال الأداة «هلّا» للدلالة على الحضّ، بشرط أن يأتي بعدها اعتراض، وإلا فهي و«لولا» في الاستعمال سواء. وثانيهما: الاقتصار على بنية تركيبية اعتراضية واحدة بعد الحضِّ. ويمكن الوقوف على نماذج توضح هذين الأمرين:

١- فمن نصوص السيرة النبوية: «عن أبي موسى قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في بعض أسفاره... فقلنا: يا رسول الله، أنت بأرض حرب، ولا نأمن عليك، **فلولا- إذ بدتْ لكَ الحاجةُ- قلتَ** لبعض أصحابك، فقام معك...»(٧).

٢- وفي السياق اللغوي يعالج المبرد (٢٨٥هـ) قضية صرفية في (المقتضب) فيقول: «فيُقال لهم: **هلّا - إذا أُعِلَّت العينُ - صُحِّحتِ** اللام»(٨).

٣- وفي السياق الاجتماعي جاء في (الكامل) للمبرد أيضاً: «**هلّا - إذا كنتَ لئيمَ العُطَاسِ - أتْبَعتَ** عطستك صيحةً حتى تخلع بها قلب العلج..»(٩).

= و﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف: ٣٩]، و﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: ١٢]، و﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ [النور: ١٦].

(٧) ابن حنبل، أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٣٢/ ٤٩٩.

(٨) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، ١/ ١٥٣.

(٩) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، ٢/ ١٢٢. ويحسن التنبيه =

٤- وفي (نثر الدر في المحاضرات) للآبي (٤٢١هـ): «فقال: يا عدو الله، **هلّا - إذا ابتليتَ بالفاحشةِ - عَزلتَ...**»[١٠].

٥- وفي (محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء) للراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ): «قال شاعر:

أَعُيَـينُ **هـلّا - إذا أتـى قـدرٌ - كنتَ استغثتَ** بفارغ العقـل»[١١]

٦- وفي السياق السياسي ذكر الزمخشري (٥٨٣هـ) في (ربيع الأبرار ونصوص الأخيار): «فقال الأمويون: **هلّا - إنْ كانتْ هـذه القضيةُ عندكَ - بدأتَ** بها قبل التحزُّب. فقال معاوية: لما رأيتهم كذلك ذكرت...»[١٢].

٧- وفي (غرر الخصائص الواضحة) لأبي إسحاق الوطواط (٧١٨هـ): «كان للمأمون خادم يسرق طسَّه الذي يتوضأ فيه، فقال له يوماً: **هلّا - إذا سرقتَ - تأتيني** بما تسرقه فأشتريه منك...»[١٣].

= على أنه قد يأتي في بعض الروايات الظرف «إذ» بدلاً من «إذا»، ولا ضير في ذلك فكلاهما ظرف، والغرض من هذه الأمثلة تتبع ورود الظرف أو الشرط بعد الحض. ومن أمثلة مجيء «إذ» ما جاء في البيان والتبيين: «ويلك هلّا إذ كنت ضيق المنخر كز الخيشوم أتبعتها بصيحة تخلع بها قلب العلج» الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ١/ ١٢٢.

(١٠) الآبي، منصور بن الحسين، نثر الدر في المحاضرات، ٤/ ٢٢٢.

(١١) الأصفهاني، الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ١/ ٣٣٦، وذُكر في البيان والتبيين أبياتٌ تشبهها نُسبت إلى مالك بن أسماء بن خارجة: «أعيـينُ هـلّا إذ شغفت بها ..... كنت استعنت بفارغ العقل». الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ٢/ ٢٩. وكذلك في: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، ١/ ٣٢.

(١٢) الزمخشري، جار الله، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، ٤/ ٣٣٤.

(١٣) الوطواط، أبو إسحاق برهان الدين محمد بن إبراهيم، غرر الخصائص الواضحة، ٧٩.

٨- وفي (المحاضرات والمحاورات) للسيوطي (٩١١هـ): «**فهلّا - إذا قضى اللهُ حبَّ المالكيّة - وَلَّيْتُم** على المسلمين ذا نفسٍ زكية»[١٤].

يتبين من النماذج السابقة تغليب استعمال «هلّا» على «لولا» في التراكيب التي ورد فيها اعتراض، مع أنهما رأسان وظيفيان لمعنى واحد، لكنَّ الاعتراض رجَّح مجيء «هلّا»، ويبدو من التسلسل الزمني أن استعمال «لولا» في ذلك السياق توقف عند النصوص القديمة للسيرة النبوية، ثم حلَّتْ «هلَّا» فيما تلاها من النصوص.

ويلاحَظ أن الاعتراض الوارد في تلك النماذج على وجهين: إما ظرفي، وإما شرطي؛ وبهذا يتأكد ما ذُكِر من تفرد القرآن الكريم بالجمع بينهما بعد «لولا».

ولعل إنتاج أمثلة أو تراكيب أو صور تركيبية تحاكي ذلك النمط الفريد (أي: ثنائية الاعتراض بعد «لولا») أمر ممكن، فيمكن القول مثلاً: ومن شأن المسلم أن يكون وقّافاً عند حدود الله، وربما يعتريه الضعف فتزلّ قدمه، فلولا - إذا عصى ربَّه، إنْ كان تقيًّا - يندمُ ويستغفر[١٥].

* * *

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الآبي، منصور بن الحسين، نثر الدر في المحاضرات، تحقيق: خالد محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ٢٠٠٤م.

(١٤) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المحاضرات والمحاورات، ١/ ١٩٨.

(١٥) يمكن أن تُستعمل الأداة «هلّا» أيضاً.

- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط١، ٢٠٠١.
- الأصفهاني، الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت ط١، ١٩٩٩م.
- بيطار، عاصم، النحو والصرف، منشورات جامعة دمشق، دمشق ط٥، ١٩٩٧م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار الهلال، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١م.
- الزمخشري، جار الله، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، مؤسسة الأعلمي، بيروت ط١، ١٩٩١م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المحاضرات والمحاورات، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط١، ٢٠٠٣م.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ط٤، ١٩٩٧م.
- ابن هشام، جمال الدين عبد الله بن يوسف الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق ط١، ١٩٩٨م.
- الوطواط، أبو إسحاق برهان الدين محمد بن إبراهيم، غرر الخصائص الواضحة، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ٢٠٠٨م.